٦ ـ أصحاب المعالي

(إن الله يحب معالي الأمور ، ويكره سفسافها)
« حديث شريف »

للأستاذ محمد محمود زيتون

وتنطبق بوضوح نظرية التدرج من الماديات إلى المعنويات — فيما يتعلق بالمعالي — على يد الإسلام الحنيف ، فقد نطق القرآن الكريم بآيات الله البينات عن الجبال الرواسي والأوتاد « وجعلنا فيها رواسي أن تميد بكم » « والجبال أوتادا » « والتين والزيتون وطور سينين » وكلها جبال معروفة و« سآوي إلى جبل يعصمني من الماء » ومع ذكر السماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وكواكب « والنجم إذا هوى » والتذكير بأن الحياة حياتان : دنيا وأخرى . ولابد أن تكون هذه الدنيا مغايرة لتلك الأخرى ، فلا بد أن تكون الحياة الأخرى هي العليا « وللآخرة خير لك من الأولى » « وأن الآخرة لهي الحيوان » « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا »

فلنتأمل هذه الآيات الكريمة لنرى كيف تصدق نظرية المعالي هنا :

« سبح اسم ربك الأعلى » « يخافون ربهم من فوقهم » « إن الله كان عليا كبيرا » « هو العلي العظيم » « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » « ولتعلن علوا كبيرا » « وقد أفلح اليوم من استعلى » « ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات » « وفي السماء رزقكم وما توعدون » « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » « والسماء والطارق، وما أدراك ما الطارق، النجم الثاقب» « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء » «وأنتم الأعلون » «وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا» «وتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا » « وإن فرعون علا في الأرض » « وإن فرعون لعال في الأرض » « أأمنتم من في السماء » « وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله » « الرحمن على العرش استوى » « في جنة عالية » « والسموات العلا » و « كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين » أي في أعلى الأمكنة وهو في السماء السابعة إليه يصعد بأرواح المؤمنين ، وفي الحديث « إن أهل الجنة ليتراءون أهل عليين كما تراءون الكوكب الدري في أفق السماء » « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » « شهابا رصدا » و « ذو مرة فاستوى » والعرش هو أعلى المخلوقات » « عند سدرة المنتهى » والإسراء بالنبي والمعراج به من الأرض إلى السماء والرسالات كانت تهبط بالوحي من السماء على ألسنة الأنبياء والمرسلين ، وآمنت بهم شعوب وقبائل وكفرت مدائن « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها »

قال عباس بن مرداس :

فمن مبلغ عني النبي محمدا ... وكل امرئ يجري بما قد تكلما
تعالى علوا فوق عرش إلهنا ... وكان مكان الله أعلى وأعظما

وقال أيضا :

رأيتك يا خير البرية كلها ... توسطت في القربى من المجد مالكا
سبقتهمو بالجد والجود والعلا ... وبالغاية القصوى تفوت السنابكا
فأنت المصفى من قريش إذا سمت ... غلاصمها تبقى القروم الفواركا

وقال العباس في مدح النبي :

حتى سما بيتك المهيمن من ... خندف علياء تحتها النطق

ويقول شوقي في نهج البردة :

حتى بلغت سماء لا يطار لها ... على جناح ولا يسعى على قدم

وكانت المرأة تأتي رسول الله فيسألها : أين ربك ؟ فتقول : في السماء . فيقول : دعوها فإنها مؤمنة

ولقد نشأ الأستاذ الأكبر لأصحاب المعالي في صحراء جرداء فصفت نفسه من شوائب المادة وخلصت إلى أسمى المعاني ، ومال

فكره بين الجبال والوهاد والشعاب والتلاع ، والربى والقاع ، وتطلع بنظره إلى السماء يتأمل ما فيها ، وفى ذات يوم شرف بسمعه على جبل سامر بمكة ، فإذا به ينام ، ولا يسمع شيئا . لأن الله تعالى قد عصمه من الدنيا ورفعه إلى المعالى ، من حيث أراد الإشراف من أعلى الجبل على زاهر الحى ، وطالما كان لجبل أحد مكان فى دعوة الإسلام ، لهذا أحبه النبى القائل « أحد جبل يحبنا ونحبه » وهذه عاطفة إنسانية تتجه نحو مادة ترابية ، وما كان ذلك ليكون من حيث هو جبل من تراب ولكن لامتزاج هذا التراب بالدماء الغوالى التى سكبت عليه فى سبيل أن تكون كلمة الله هى العليا

وأريد محمد يوما أن يكف عن هذا الدين الذى جاء به ، فقال لصغير القوم عمه أبى طالب « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته » ، وفى هذا الجواب مزاج من العزة والطموح ، إذ أن النبى إنما ألقى بهذا الدرس العالى على الأجيال المتعالية فى سلم الترقى ، وبين عينيه الشمس والقمر ، وهما ما هما علوا وارتفاعا ومع هذا يمتلئ قلب محمد بالعزة التى تكاد تفقت الشمس والقمر وتنزلهما من أعلى مكان ليكونا بين يديه

ومن هذا الباب رؤيا يوسف عليه السلام « قال يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » والأحلام — فى نظر السيكولوجيين — هى تنفيس عن رغبات مكبوتة ، وهكذا يجتمع أنبياء الله فى قمة المعالى ، بما ملأ قلوبهم من الإيمان ، فتهون حيالها ما فى الأكوان من كواكب وجبال . وكثيرا ما يرى الطامحون فى منامهم أنهم يطيرون ، وأقرب تفسير لذلك أنهم من أصحاب المعالى

وليس بمنكر أن يكون محمد زعيم أصحاب المعالى فهو القائل « علو الهمة من الإيمان » والقائل أيضا « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها » وجاء فى الأثر « لا تصغروا همكم » ولقد كان أهل المدينة من الجهات العالية بها يسمون فى العرب باسم « أهل العوالى » وقد جاء « عجوة العالية شفاء » « لاينبغى لهم أن يعلونا » وفى ذلك اليوم غلب على وهم أبى سفيان أن أبطال المسلمين قد قتلوا ، لهذا قال : « أنعمت فعال » أى فدعنى ، وقال أبو طالب :

— فى ذروة حقداء — : لا تعلونى أشيء

ويقال إن أرواح الأنبياء فى الملأ الأعلى ، كما أن النبى الكريم كان يقول وهو يقاسى سكرة الموت : بل الرفيق الأعلى ، فتقول عائشة : إذن والله لا يختارنا

وقف أبو سفيان يوم أحد مفاخرا برأس الأصنام (هبل) فيخاطبه : اعل هبل . وما يكون لصنم أو لعابد صنم أن يعلو أو يسود ، لهذا أمر النبى أحد الصحابة ليجيب فقال : الله أعلى وأجل . وماذا يقول المنطق السليم فى هذا الجواب السليم الصاعد بالتمجيد إلى الله الذى لا أكبر منه ولا أعلى ، وهو سبحانه وتعالى يعلو ولا يعلى عليه

وكان مما قاله معبد الخزاعى عندما التقى النبى بحمراء الأسد بعد غزاة أحد « .. ولوددنا أن الله تعالى أعلى كعبك »

ومن أوضح الأدلة على الشعور بالدون عند أهل الدون قول رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول عندما قال :

متى مايكن مولاك خصمك لاتزل ... تذل ويعلوك الذى لا تصارع

وهل ينهض البازى بغير جناحه ... وإن قص يوما ريشه فهو واقع

وذلك من غير شك تعبير عن هذا النقصان الناجم عن الحقد والضغن فى نفس هذا المنافق الغليظ الذى لا يعلو ، وما يكون له ولا لمثله ولا لأمثال أمثالها أن يعلو . وخير منه فى هذه الخصومة الوليد بن المغيرة فى وصفه كتاب الله « وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق . »

ولما سئل نبى الله عن أى أنواع الجهاد فى سبيل الله قال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » . وهو عليه السلام الداعم إلى علو النفس وإباء الضيم وارتفاع الكرامة إذ يقول « اليد العليا خير من اليد السفلى »

ومن مظاهر التشريف والتكريم أن ينزل الضيف فى أعلى مكان بالبيت ، لهذا عندما وصل النبى — لدى هجرته المباركة — إلى قباء نزل فى علو المدينة بحى عمرو بن عوف ، وفى بيت أبى أيوب الأنصارى ، نزل النبى بالسفل وما كان أبو أيوب ليرضى أن يكون هو بالعلو والنبى بالسفل ، ولكن تواضع نبى الإسلام

أبى عليه أن يعلو سافلا ، فارتفع روحا ومعنى ، وهو الذى سأل ربه : اللهم الرفيق الأعلى ، اللهم ألحقنى بالرفيق الأعلى ، أسأل الله الرفيق الأعلى

وقبلا نادى نوفل بن خويلد يوم بدر فقال : يا معشر قريش : اليوم يوم الرفعة والعلى ، فقال النبى : اللهم اكفنى نوفل بن خويلد ، فقام إليه على فقتله ، ومعنى ذلك أن صاحب المعالى عليا ابن أبى طالب كرم الله وجهه قتل نوفل بن خويلد الذى يدعى الرفعة والعلى ، وهما منه براء ، وهو منهما على غير شئ فى كثير أو قليل . لهذا كثر ما كان المسلمون يعلون الكفار بالسيوف فتطيح رءوسهم إلى أسفل سافلين

ولما دنا فراق النبى عليه السلام دنيا الناس جمع أصحاب المعالى الصحابة فى بيت عائشة وقال لهم فيما قال « أوصيكم بتقوى الله ، وأستخلفه عليكم وأحذركم الله ، إنى لكم نذير مبين ألا تعلوا على الله فى بلاده وعباده ، فإنه قال لى ولكم : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين »

وجاء فتى إلى رسول الله فقال : يا نبى الله إن انا منك نظرة فى الدنيا ويوم القيامة لا تراك ، فإنك فى الجنة فى الدرجات العلا ، فنزلت : « ومن يطع الرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » وقال النبى : أنت معى فى الجنة

وقد رأينا كيف أنشد النابغة أبو ليلى عبد الله بن قيس أمام النبى بيته العالى :

علونا السماء عفة وتكرما وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فغضب النبى فقال : إلى أين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة يا رسول الله فقال النبى : أجل إن شاء الله . وهذا يذكرنا بقول النبى لأم حارثة بن سراقة « وحارثة فى الفردوس الأعلى فرجعت وهى تضحك وتقول وهى تضحك : بخ بخ لك يا حارثة

والحق دائما ينتسب إلى العلا بينما الباطل ينتمى إلى الدون ، وهذا مصداق قول رسول الله لسعد بن معاذ إذ أصدر حكمه — بأمر النبى — فى يهود بنى قريظة « لقد حكمت فيهم بحكم الله — من فوق سبع سموات — وشأن هذا الحكم العلو والرفعة — قد طرقنى بذلك الملك سحرا » فهذا الحكم العالى الذى تتضاءل دونه أحكام الاستئناف العالى

وقد تغلغلت روح المعالى فى نفوس الصفوة المختارة من فلاسفة الإسلام وخلفائهم المثقفين ، فهذا ابن سينا يقول فى مطلع قصيدته فى النفس :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع

وهذا المأمون يقول لرجل استأذن فى تقبيل يده « إن قبلة اليد من المسلم ذلة ومن الذمى خديعة ، ولا حاجة بك أن تذل ولا بنا أن نخدع »

والجهاد فى الإسلام رفعة النفس بينما التكوص على الأعقاب والقعود عن الجهاد هو الإخلاد إلى الأرض ، والرضى بالدنيا ، وشأن الكريم أن ينشد الحياة العالية ، قال تعالى « يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل » . والنبى يقول « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » . والسماء إشارة إلى السمو والرفعة لهذا يقول النبى « ألا تأمنونى وأنا أمين فى السماء يأتينى خبر السماء صباحا ومساء » وإليها تصعد دعوة المظلوم ففى الحديث « اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة » والملائكة تتحدث فى عنان السماء . وما أجمل الخلق النبوى حينما يقول محمد « لا تفضلونى على يونس بن متى » . ذلك أن النظرة القاصرة تفرق بين إسراء محمد إلى سدرة المنتهى وهبوط الحوت بيونس إلى قعر البحار فى أسفل الأرض ، ولكن محمدا لا يرتضى هذه التفرقة لأنهما كانا فى القرب من الله سواء

وجاء فى الخبر « أربعة أملاك اجتمعوا فى الهواء ، أحدهم هبط من العلو ، والآخر ارتفع من السفل ، والآخر من الشرق ، والآخر من المغرب ، واحدهم يقول :

« أقبلت من عند ربى ، فسبحان الموجود فى الكل مكانه ، مشيئته ووجوده قدرته ، والعرش والثرى وما بينهما هو حد الخلق الأسفل والأعلى بمنزله خردلة فى قبضته هو أعلى من ذلك بما لا يدركه العقل ولا يكيفه الوهم ولا نهاية لعلوه ولا فوق لسموه ولا بعد فى دنوه ولا حس فى وجوده ولا مس فى شهوده ولا إدراك لحضوره ، ولا حيطة لحيطته »

محمد محمود غزنوى